

المنهج الوسطي

خالد سيف الله الرحماني

(مجمع الفقه الإسلامي الهند)

مارس ٢٠١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

نحمد الله تعالى، ونشكره، ونتني عليه الخير كله على ما يسرّ لنا للبحث في أحكام الشريعة الإسلامية التي كتب لها الخلود والدوم إلى قيام الساعة، ومواكبة كل عصر مهما يتضور ويستجذب، وذلك لكي نضطلع بأعباء إرشاد هذه الأمة الأخيرة بكل ما في الكلمة من معنى، وتوجيهها في تحطيط وانتظام؛ ولا شك أن هذا عمل جليل الشأن، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: "تفكر ساعة خير من قيام ليلة" (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ٢٠٨/١)، ويقول التابعي المشهور وهب بن منبه – وهو من تشرف بالاستفادة من غير واحد من الصحابة: "مجلس يتزاوج فيه العلم أحب إلى من قدره صلاة، لعل أحدهم يسمع الكلمة فيتفع بها سنة أو ما بقي من عمره" (سنن الدارمي: باب فضل العلم والعلم، رقم الحديث: ٣٣٤).

وقد سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن رجلين، كان أحدهما عالماً يصلى الفرائض، ثم يرشد الناس إلى الخير والبر، والثاني يصوم النهار ويقوم الليل، أيهما أفضّل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "فضل هذا العالم الذي يصلى المكتوبة، ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذي يصوم النهار، ويقوم الليل كفضل على أدناكم رحلاً" (سنن الدارمي: باب في فضل العلم والعلم، رقم الحديث: ٣٥٢)، نرجو الله سبحانه أن يجعل اجتماعنا مثل هذا، وتقبل منا صالح أعمالنا، وتحاوز عن سيئاتنا، وهو المستعان.

لقد مضى على نشأة جمع الفقه الإسلامي ربع قرن، ولكنَّه يبدو أنه حديث البارحة، وكلنا جالسون مع أكابر العلماء بجامعة همدرد في ندوته الأولى الافتتاحية، فهذا الإمام أبو الحسن علي الحسني الندوبي، وذلك الشيخ منة الله

الرحماني، وهذا الشيخ أبو السعود الباقي رحمهم الله، وكلهم متربعون على المنصة، لم ينزل ذلك المنظر البهيج الروحي مثلاً أمام الأعين، ونعرف أنه قييس الله لهذا العمل الجاد المثمر رجلاً ثاقب الفكر، بعيد النظر سماحة الشيخ القاضي مجاهد الإسلام القاسمي الذي أرسى قواعد مجمع الفقه الإسلامي في عام ١٩٨٩م، وبمحض فضل الله وكرمه اكتسب الجمع وذ الأفضل من العلماء الكبار دائماً، فعمل الجمع تحت إشراف هولاء المشايخ المذكورين أعلاه بالإضافة إلى الشيخ الفتى نظام الدين الأعظمي رئيس المفتين بدار العلوم، ديويند، والشيخ الفتى عبد الرحيم الاجوري رحمهم الله، كما يعمل الآن تحت إشراف الشيخ محمد سالم القاسمي، والشيخ محمد الرابع الحسني الندوبي، والشيخ السيد نظام الدين القاسمي حفظهم الله تعالى، ويسير هذا الركب العلمي للمجمع تحت رئاسة الشيخ محمد نعمة الله الأعظمي (رئيس قسم الحديث بدارالعلوم، ديويند) الذي خلف الشيخ الفتى ظفير الدين الفتاحي رحمة الله رئيس هيئة الإفتاء بدار العلوم، ديويند سابقاً في المنصب.

يواصل الجمع أعماله بنجاح بفضل الله وتعاون علمي من من العلماء، ولم يكن بالحسبان أن هذه الشجيرة سوف تصبح شجرة وارفة يستظل بظلالها، ولكن الله سقاها بعناته، وأنبتها نباتاً حسناً: "ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها" (إبراهيم: ٢٥).

لقد أنشئ الجمع لثلاثة أهداف رئيسية:

المهد الأول: تقديم حلول ناجعة لمسائل مستجدة، فقد ناقش العلماء في اثنين وعشرين ندوة سابقة ٩٢ موضوعاً رئيسياً، وتوصلوا إلى القرار حول ٥٥ قضية فقهية مستجدة فرعية، اختلفت آراء العلماء المشاركين فيها حول ٢٢ مسألة، وأجل القرار في عدة مسائل، وأما بقيتها فقد توصلت الندوة فيها إلى القرارات الحاسمة، والآن نرحب بكم في الندوة الثالثة والعشرين للمجمع، والفضل كله يرجع إلى الله.

والمهدف الثاني للمجمع تربية الجيل الجديد لنشاطات علمية فقهية وتحقيقية، وتعقد لهذه الغاية ورش تربوية، ودورات فكرية، وقد تم عقد أكثر من ست وعشرين ورشة تربوية حول مختلف الموضوعات، كما عقدت ثماني دورات حول قضايا فكرية وعلمية، و تحقيقاً لهذا المهدف تنظم محاضرات عامة حول موضوعات فكرية معاصرة في المعاهد الدينية، وقد أقيمت ثلاث عشرة ندوة حول أمثال هذه الموضوعات في كبرى مدن الهند، يشارك فيها العلماء الشباب وطلبة قسم الإفتاء من مختلف المعاهد الكبرى، و في هذه الندوات الفقهية أيضاً، وهذا تعبير رؤيا مؤسس المجمع سماحة القاضي مجاهد الإسلام القاسمي، فكان يرى أن إعداد الصنف الثاني والثالث للعمل على جبهات وأصعدة إسلامية من الوجب الختم على كبار العلماء والقادة.

وأما المهدف الثالث فهو إعداد كتابات حول مواضيع علمية وتحقيقية مختلفة، فقد تم نقل سبعة عشر كتاباً عربياً إلى اللغة الأردية، كما نقلت ملخصات إحدى عشرة مجلة فقهية للمجمع وبعض الكتابات الأردية الأخرى إلى اللغة العربية، وترجم كذلك عشرة كتب من الأردية إلى الإنجليزية، وخمسة كتب إلى اللغة الهندية، وطبع قرارات ووصيات فقهية للمجمع في عدة لغات، وأنشئ قسم خاص للطباعة باسم "مؤسسة إيفا للطبع والنشر" التابعة للمجمع، وقد صدر منها مائة وخمسة وعشرون مؤلفاً من حيث المجموع، منها: أكثر من ثمانين مجلة فقهية قدمت في ندوات فقهية مختلفة للمجمع، وتدخل في هذه المجالات ترجمة بعضها إلى الإنجليزية و الفارسية واللغات الأخرى، الواقع أن هذه المجالات تعتبر بمثابة موسوعة المباحث الفقهية المعاصرة باللغة الأردية، ونالت قبولاً واسعاً في العالم كله، ومن أجلّ ما أثر المجمع ترجمة "الموسوعة الفقهية" الصادرة من وزارة الأوقاف الكويتية في خمسة وأربعين مجلداً إلى اللغة الأردية، لوم ينجز المجمع في مدة خمس وعشرين سنة إلا هذين المشروعين لأولى غاياته المنشودة، ولكن الحمد لله أنه هيأ للمجمع أن يشري المكتبات الإسلامية بمطبوعاته العلمية والفكرية، متمسكاً بفكرة الازان

والوسطية، ونال القبول والإشادة لدى أهل العلم والفضل، لو كانت مرافقتكم في هذه الرحلة العلمية المباركة بالتعاون المستمر يتيسر للمجمع أن يواصل مسيرته، ويقطع مسافته بنجاح، ويحقق أهدافه بتقدم وازدهار.

علاوة على هذا بدأ المجمع سلسلة جديدة وهي عملية إعداد الأبحاث العلمية حول موضوعات عالمية مهمة بأقلام العلماء الشباب، فقد طبعت أربعة أبحاث باللغة العربية في هذا الصدد حول موضوعات ترتبط بالعلاقات الدولية، وبسبعين أبحاث في الموضوعات المنوعة الأخرى، ولا تزال يتسع نطاق المجمع العلمي والفكري، وخدماته في المطبوعات، وذكر ذلك يطول، والواقع أن هذه المجهودات كلها نتيجة أدعية أولئك العلماء الريانيين الذين يحظى المجمع بعنايائهم الفائقة، كما أن لكم حظاً أوفر في إرواء هذه الشجرة الباسقة، فبأقلامكم يتغذى المجمع علمياً وفكرياً.

إنما لحقيقة ناصعة كبرى أن للعلماء منزلةً سامية ومكانة سامية بين أوساط المسلمين وغيرهم، وبقدر المكانة تعود المسؤولية، فمسؤولية العلماء أكثر من غيرهم في كثير من الأمور المتعلقة بالدين والدنيا، يقول النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ كَمَثَلِ النَّجُومِ فِي السَّمَاوَاتِ يُهْتَدِي بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، إِذَا انْطَمَسَتِ النَّجُومُ، أَوْ شَكَ أَنْ تَضَلَّ الْهَدَاةُ". (المسند الجامع" ٤/١٤٨، رقم الحديث: ١٢١٦؛ مسند أحمد: ٣/١٥٧) الحديث: ١٢٦٢٨) ثُبَّهُ الْعَلَمَاءُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِالنَّجُومِ، لَوْ رَجَعْنَا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لَفَهُمْ مَعْنَى هَذَا التَّشْبِيهِ لَوْجَدْنَا أَنَّ النَّجُومَ لَهَا ثَلَاثَ خَصَالٍ أَسَاسِيةً، أَوْ لَهَا: أَنَّ السَّمَاوَاتِ الدُّنْيَا زُيَّتْتِ بِهَا، "وَزَيَّنَ السَّمَاوَاتِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ" (فَصِّلَتْ: ١٢) وَالثَّانِيَةُ: أَنَّهَا تَكُونُ ذَرِيعَةً لِإِرْشَادِ السَّبِيلِ وَإِنَارَةِ الْطَّرِقِ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيلِ الْحَالَكَةِ، وَالثَّالِثَةُ: أَنَّ كَلَّا مِنْهَا كَانَ سُوطًا مِنْ سِيَاطِ اللَّهِ عَلَى الشَّيْطَانِ: "رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ" (الملك: ٥).

لو نظرنا في ضوء هذا التشبيه لوجدنا أن للعلماء ثلاثة مسؤوليات كذلك؛ تعود إليهم، أولاًها: أن يكونوا على قمة منخلق البطل والسلوك

الفضل حيث تُزيّن بجم الأمة وتزدان بجم في حالة من النور والزينة، ويكون كل فرد من أفرادهم داعية إلى الله ومتحلياً بالخلق النبوى الكريم، حتى يلتف حوله الناس ويستفيدوا منه كما هو مطلوب، والثانية: أن يكونوا قادة الأمة، فيجتبيوا من سفاسف الأمور، ورزايا الأخلاق الظاهرة والمعنوية، والثالثة: أن يحفظوا الأمة من الزعزعة الثقافية، والبلبلة الفكرية والعملية، فإن كل هذا من قبل الشيطان، تُدعّمه قوّاتُ شياطين الإنس والجن.

قد ازدادت أهمية هذه الجوانب الثلاث في الوقت الراهن، فإن العلماء قد انخطوا خلقياً إلى حضيض من الدناءة، حتى جرأت بعض الدول على أن تحصل على فتاويهم حسب إرادتها لا حسب الشريعة، وقد لا يمنع بعضهم من أن يبيع نفسه بعرض من الدنيا وحطامها الفاني، ونسى العلماء أو تناسوا ما جرى مع الإمام أبي حنيفة، والإمام أحمد بن حنبل، والعلامة ابن تيمية من وقائع الجراءة، والشجاعة، والفتوة والحمية الإسلامية، وما جرى عندما دخل حاكم الشام إبراهيم باشا على محدث حلب الشيخ سعيد الحلبي، وكان ماداً رجليه لعذر لحقه، فأعجب به الحاكم، وأرسل إليه صرة من الدينار، فاعتذر من قبولها، وقال: "يُمد رجليه من لا يمد يديه"، كما نسي كثير من العلماء أنهم كانوا بالأصل دعاةً إلى الله ثم المفتين والقضاة، وضعف عنایتهم بإرشاد الأمة إلى التربية الإسلامية السوية، وإنقاذ الإنسانية من براثن الشرك والكفر عن طريق الدعوة إلى دين الحق، مع أنهم كانوا ورثة الأنبياء وأجراء الله، فكل نبي كان يقول لقومه: "إن أجري إلا على الله" (يونس: ٧٢)، وهذه كانت ذيذنة العلماء والسلف الصالحين.

ومن واجب العلماء كذلك مقاومة ما يُنشر باسم العولمة بين المسلمين وغيرهم من فكرة غير إسلامية حتى يتبعون المسلمين من الحمية الدينية، ويتحلوا عن المثل العليا، وتغزوهم أفكار غربية وحضارة أوروبية، وتكون هذه المقاومة الإيمانية بكل جرأة وشجاعة، ومن هنا يتحتم على العلماء أن يعملا على هذه الجبهات الثلاث ويتقدموا بعزم أكيد ودم جديد.

بهذه المناسبة التاريخية أريد ان استدعي انتبه العلماء بالإضافة إلى ذلك
نحو بعض النقاط المهمة:

إن الخلافات التي ازدادت بين مختلف أوساط الأمة حقيقة لا تُحْدَد،
وتوجد وراء ذلك أسباب يطول ذكرها، والخلافات المذهبية تعمق جذورها، وتتمثل
دورا هاما في إثارة العواطف العدائية، ومنبع هذا الاختلاف هو العلماء؛ أما إزالة
الخلاف نهائياً فشبة المستحيل، ولا يمكن أن يضم جميع المذاهب بعضها إلى بعض،
وينتهي نوع المذاهب الفقهية، ولكن يمكن إيجاد أمرين: الأول منهما أن نتعلم درس
الوحدة والتضامن، ونستعد أنفسنا للاجتماع على رصيف واحد في القضايا المتفق
عليها من أحكام وموافق، وتقديم حلولاً موحدة لقضايا الأمة المشتركة، فإن القرآن
الكريم دعا النصارى أيضاً إلى الوحدة والتضامن في المسائل المجمع عليها، "قل يا أهل
الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم" (آل عمران: ٦٤) فهل يستحيل اجتماع
المسلمين على مسائل مشتركة، والأمر الثاني: أن نحتاط في إبداء اختلاف الرأي في
مسألة، ونراعي بتقدير وإجلال كل من العلماء والفقهاء.

والمسائل التي يوجد فيها غير واحد من أقوال العلماء لا يفسق العامل
بواحد منها، والأفعال التي لا يوجد لها أصل في خير القرون، ويفعلها أحد من دون
اعتقاد فيها أنها من الأمور الدينية فيمكن أن ينهى عنها بالنسبة لأضرار تعود
جراءها، ولكنه لا يصح أن تطلق عليها البدعة، لأن كل نوع من أنواع الإحداث
ليس بدعة، وإنما البدعة هي الإحداث في الدين، وذلك كل عمل سائد في العالم
من غير تخصيص بقزم دون قوم، ولا يمت بصلة إلى دين، ولا يعتبر من طقوس متتبعة
في طبقة غير مسلمة، لا يطلق عليها حكم التشبه بالكافر، ولا يجوز تسمية من
يأتيها فاسقاً، كما يظهر من بعض فتاوى الشيخ أشرف علي التهانوي.

ومن جوانب عدم التوازن في الأمة هو عدم الفرق بين الإنكار والتأويل،
فالإنكار يعني الجحود بكون شيء حجة، أما التأويل فهو العدول من معنى
متبادر إلى معنى بعيد يحتمله الكلام، وعلى سبيل المثال قول رسول الله صلى الله

عليه وسلم: "تحريمها التكبير"، فذهب بعض الفقهاء إلى أن المراد منه قول القائل: "الله أكبر" بينما ذهب بعض الفقهاء الآخرين إلى أن أداء كلمة التعظيم أياً كانت تكفي عملاً بهذا الحديث مراعاة لجانبه المعنوي، فهذه الصورة الثانية هي صورة التأويل، ومن ذلك مسألة صفات الباري سبحانه وتعالى، فقد قال بعض السلف الصالحين أن الله أعضاء ولكن ثبوتها لله موافق لشأنه، وجلالته، لا نستطيع أن ندرك حقيقته، وهذا هو "التفويض"، وذهب بعضهم إلى التأويل، وذلك أن المراد بالعين مثلاً هو كونه بصيراً، والمراد بالأذن هو كونه سميعاً، فلا يصح أن يطلق على أحد من الفريقين أنه منكر للنص الشرعي، فلو يعتبر التأويل جحوداً وإنكاراً، إن كان كذلك فلا يبقى أحد من السلف إلا ويتهم بالإنكار.

ومن أبرز أسباب عدم التوازن عدم مراعاة مدارج الأحكام، فالحقيقة أن الأحكام كلها ليست في درجة واحدة، فمنها فرائض، وواجبات، ومنها سنن ومندوبيات، ومنها مباحات، ومنها ما تقوم على النصوص الشرعية، وبعضها على القياس، والاجتهاد، ثم التي تقوم على النصوص هي تتبع إلى قطعية الثبوت، وظنيتها، وقطعية الدلالة، وظنيتها، فالأحكام تختلف من ناحية الأهمية والثبوت، ومن ناحية دلالة مصادر الشريعة على هذه الأحكام، فلا بد من مراعاة الفروق بين هذه الأحكام التي تختلف درجاتها في الأهمية، والثبوت، فرفع مستوى حكم من الأحكام من درجته الأصلية غلو وإحداث في الدين، ولذلك عدد العلماء إيجاب ما لا يجب بدعة، كجعل السنة أو المستحب في درجة الفرض أو المعاملة مع تارك السنة كتارك الفرض، وخفض مستوى حكم من الأحكام، وإسقاطه من درجته الأصلية هو انحراف، وتساهل، ونقص في الدين.

ومن ذلك تحطئة عمل اختلفت فيه أقوال العلماء على طرق متعددة، وتفسيق العامل على طريقة واحدة منها، فالإمام الشافعي منع من أن يعتبر أحد عملاً يخالف رأيه منكراً، وقال الثوري: "إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختلف فيه، وأنت ترى غيره فلا تنهيه" (الفقيه والمتفقه: ١٦٩/٢).

أيتها السادة الحضور!

والصراعات المذهبية تكون عميقة الجذور، واسعة المدى وعريضة النطاق، وعندما هي تدخل دائرة الانحراف والشدة يستعصي سد فجوة تقع لأجلها بين القلوب، ويصعب أن يجمع الناس على صعيد واحد؛ لأن توسيع هوة الخلاف يعتبر اليوم نوعاً من أنواع خدمة الإسلام، والفوز في الآخرة، ويظن المتطرفون أنهم يستحقون الأجر والثواب من الله حسب تطرفهم في التمسك بأفكارهم حتى يجرؤون على تكفير الآخرين، ويتطاون بعضهم مع بعض، ويصبح كل منهم وقوداً للآخر، ويسمى بعضهم بعضاً "فرقة نارية"، ويناقش بعض أصحاب المذاهب الفقهية في جواز الصلاة وعدمه خلف إمام مخالف لمؤتمِّن الفقه، والواقع أن الدخول في الإسلام أيسر الأعمال في الشريعة، كل من يُظهر تيقنه بتوحيد الله تعالى، وإقراره بآسمائه، وصفاته ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم، والآخرة، والبعث والنشور يدخل حظيرة الإسلام، تجري فيه أحكام الإسلام، ليس لأحد أن يطلع على ما في داخل قلبه، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث"

(البخاري: ٣٧، باب: سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم

عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة).

وقد كان عدد من الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافقين يُظهرون أنهم مسلمون، ولكنهم لم يكونوا مسلمين في بواطنهم، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاملهم معاملة المسلمين لقيامهم بشعائر الإسلام في الظاهر وإن أسرّوا خلافها، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأسماء هؤلاء من ربه، ولكنه صلى الله عليه وسلم مع ذلك لم ييدها أممَّا عامة الصحابة رضي الله عنهم خشية أن يبدأ الناس يعاملوهم معاملة من لم يقر بإسلامهم مع أنهم أقروا بإسلامهم.

إن الدخول في الإسلام والحكم على أحد أنه مسلم سهل ميسور، وأما

الحكم على أحد أنه خارج عن رقة الإسلام، ومرتد عن سبيل المؤمنين، فإنه أمر خطير، وينبغي الأخذ بحية وحذر وتأمل وترتيل في ذلك، فلا يجوز أن يكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة بكافرها، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:
"أيما أمرئ قال لأنبيائه يا كافر! فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإنما رجعت عليه" (مسلم ، كتاب الإيمان، باب بيان حصال الإيمان ...، برقم: ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧).

إن الأحاديث النبوية تشير إلى أن الإنسان يدخل في دائرة الإسلام بإقراره بالشهادتين، وأما علامه إسلامه في حياته العملية فهي أن يصلى مع المسلمين، ويعتقد أن الكعبة قبلة المسلمين، وأن ذبيحة المسلمين حلال، فقد روى سيدنا أنس صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
"من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تحرروا الله في ذمته" (البخاري، كتاب الصلاة، باب فضل استقبال القبلة، برقم: ٣٨٤).

وهذا هو الحديث الذي جعله الإمام عبد الوهاب الشعري أساساً عند حديثه عن الفرق الضالة في كتابه: "اليوقيت والجواهر"، يقول:
"لا يحكم على مذهب من المذاهب الإسلامية بالكفر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله" (اليوقيت والجواهر: ٢/١٢٥، مبحث: ٥٨).

وما يدل على ذلك أن الفرق المختلفة المنحرفة عن جادة الحق والصواب قد ظهرت في آخر عصر الصحابة رضي الله عنه، ولكنهم احتاطوا في تكفيرهم، فقد ظهر الخوارج في عهد سيدنا علي كرم الله وجهه، وكانوا يكفرون كلتا الجماعتين من الصحابة من كانوا معه أو ضده؛ ولكن علياً لم يتبدّل إلى تكفيرهم إلا أنه قال:

"لَوْ عَاثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ لِقَاتَلُنَا هُمْ" ثُمَّ قَاتَلُهُمْ فَهُزِمُهُمْ وَلَكُنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا بِالْمُفْتَوِحِينَ وَأَمْوَالِهِمْ مُعْتَدِلَةُ الْكُفَّارِ، فَلَمْ يَجْعَلْ نِسَاءَهُمْ إِمَاءً وَأَمْوَالِهِمْ غَنَائِمٌ.
فَإِنَّا نَرَى فِي آثَارِ السَّلْفِ وَتَرَاجُّهُمْ أَنَّ أَهْلَ السَّنَةِ اخْتَلَفُوا الْخُوارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَشَدَّدُوا عَلَيْهِمْ فِي الرَّدِّ عَلَى مُعْتَقَدِهِمْ، وَلَكُنَّهُمْ مَا تَعْجَلُوا فِي تَكْفِيرِهِمْ بَلْ أَخْذُوا بِمَبْدَأِ الْاحْتِيَاطِ فِي ذَلِكَ، وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ الْيَوْمَ فَكُلُّ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ لَا تَتَحرَّجُ فِي تَكْفِيرِ طَائِفَةٍ أُخْرَى، وَيُكَرِّهُونَ إِخْوَانَهُمُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَخْالِفُونَهُمْ فِي الرَّأْيِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ.

فَالْحَاجَةُ مَاسَةٌ إِلَى التَّمْسِكِ بِمَبْدَأِ الْاحْتِيَاطِ فِي تَكْفِيرِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ تَشْرِيكَهَا، فَهُنَّا كَفُورٌ بَيْنَهُمْ وَبَوْنٌ شَاسِعٌ بَيْنَ أَنْ يَعْتَقِدَ شَخْصٌ فِي عَالَمٍ أَنَّهُ مَعْصُومٌ مُثْلُ النَّبِيِّ وَبَيْنَ أَنْ تَسْتَندَ إِلَى تَحْقِيقِهِ وَاجْتِهادِهِ، وَيَعْتَمِدُ عَلَى فَقْهِهِ فِي الدِّينِ، فَالْأَوَّلُ شَرْكٌ، وَالثَّانِي اتِّبَاعُ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَالصَّالِحٌ، وَذَلِكَ مَطْلُوبٌ فِي الدِّينِ، مَأْمُورٌ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: "أَوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيهِمْ هُدًى" (الْأَنْعَامُ: ٩٠).
وَهَكُذا لَوْ كَانَ هُنَاكَ شَخْصٌ يَرْتَكِبُ عَمَلاً مَشْوِيًّا بِالْشَّرْكِ، وَلَكُنَّهُ يَؤْوِلُهُ، فَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالُ: إِنَّهُ ارْتَكَبَ عَمَلاً مِنْ أَعْمَالِ الشَّرْكِ، وَلَكُنَّهُ لَا يَبْغِي أَنْ يُفْتَى بِأَنَّهُ مُشَرِّكٌ، وَمِنْ قَوَاعِدِ الْفَقَهِ أَنَّ عَمَلَ الْمُسْلِمِ أَيَا كَانَ يَحْمِلُ عَلَى الصَّوَابِ مَا أَمْكَنَ، يَقُولُ الْفَقِيهُ الْحَنْفِيُّ الْمُشْهُورُ الْعَالَمُ أَبُو عَابِدِيْنَ الشَّامِيُّ:

"لَا يُفْتَى بِكُفْرِ مُسْلِمٍ فِي كُفْرِهِ اخْتِلَافٌ، وَلَوْ رَوْاْيَةٌ ضَعِيفَةٌ، فَقَدْ

عَدَلُوا عَنِ الْإِفْتَاءِ بِالصَّحِيحِ لِأَنَّ الْكُفْرَ شَيْءٌ عَظِيمٌ" (رِسْمِ الْمُفْتِيِّ، ص: ١٩٠، مَطْبَعُ زَكْرِيَا - دِيَوْبِنْد).

وَيُجَدِّرُ بِالذِّكْرِ هُنَاكَ مَا ذَكَرَهُ أَبُو حَنِيفَةَ الْمَصْرِيُّ مِنْ قَصَّةِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحْمَهُ اللَّهُ فِي هَذَا الصَّدَدِ، يَقُولُ:

"وَسَلَلَ الْإِمَامَ (أَبُو حَنِيفَةَ) رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَمَنْ قَالَ: أَرْجُو

الْجَنَّةَ، وَلَا أَخَافُ النَّارَ، وَلَا أَخَافُ اللَّهَ تَعَالَى، وَأَكُلُّ الْمِيتَةَ،

وأصلني بلا قراءة وبلا ركوع وسجود، وأشهد بما لم أره وأبغض الحق وأحب الفتنة، فقال أصحابه: أمر هذا الرجل مشكل ، فقال الإمام: هذا الرجل يرجو الله لا الجنة ويخاف الله لا النار ولا يخاف الظلم من الله تعالى في عذابه، ويأكل السمك والجراد، ويصلبي على الجنازة ويشهاد بالتوحيد ويغضض الموت وهو حق ويحب المال والولد وهم فتنته له ، فقام السائل وقبل رأسه، وقال: أشهد أنك للعلم وعاء" (الأشباه والنظائر: ٤٢٦، ط: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٠م).

وتوجد أمثلة كثيرة لهذه الحيطة عند من جاء بعدهم من الفقهاء كذلك، فقد كان الصراع محتدماً بين أهل السنة والجماعة وبين المعتزلة والمرجئة، وتأثر بذلك الحكام والأمراء، وكانت هناك محاولات إزعام الفريق الآخر تحت رعاية الحكومة، ولكن أحد الفقهاء بغاية من الاحتياط في تكفير المعتزلة والمرجئة، كما حدثت خلافات عقدية شديدة بين طوائف أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية والحنابلة، وكان لذلك تأثيرات على آراء المحدثين عن الرواية، ولكن تجنب الجميع تكفير بعضهم بعضاً، وكان عامة الفقهاء المتقدمين يرون أن الشيعة الذين لا يعتقدون بتحريف القرآن لا يحكم بکفرهم.

فقد قال الإمام عبد الوهاب الشعراوي ما ملخصه:

"إن المعتزلة والنحارية والروافض والخوارج والمشبهة كلهم مسلمون، لا يحكم عليهم بالكفر، ونقل عن الشيخ أبي طاهر القزويني أنهم كلهم من أمة الإجابة، فمن الظلم أن يكفروا ويُخرجوا من دائرة الإسلام" (المراجع السابق).

ونقل عن الإمام أبي الحسن الأشعري أنه قال عندما حضرته الوفاة: "أشهدوا أنني لا أكفر أحداً من أهل القبلة لعصيته، لأنني أراهم جمِيعاً يولون وجوههم شطر معبد واحد، والإسلام يشملهم

بأجمعهم" (اليقظة للشاعري: ١٢٦/٢، مبحث: ٥٨).

ونقل عن الإمام الشافعي :

"من يُؤول على خلاف الظاهر، فإنه آثم، ولكنه لا يكفر لأجل ذلك" (المرجع السابق).

وأتفق الشافعية كذلك على أن الخوارج لا يحكم عليهم بالكفر (راجع: الصواعق المحرقة، ص: ١٥، ابن حجر الهيثمي).

وكتب العلامة ابن عابدين الشامي عن الخوارج:

"وحكم الخوارج عند جمهور الفقهاء والمحدثين حكم البغاة، وذهب بعض المحدثين إلى كفرهم ، قال ابن المنذر: ولا أعلم أحداً وافق أهل الحديث على تكفييرهم، وهذا يقتضي نقل إجماع الفقهاء، وقد ذكر في المحيط أن بعض الفقهاء لا يكفر أحداً من أهل البدع، وبعضهم يكفر من خالف منهم بيدعه دليلاً قطعياً ونسبة إلى أكثر أهل السنة، والنقل الأول أثبت، نعم يقع في كلام أهل مذهب تكفيير كثير، لكن ليس من كلام الفقهاء الذين هم المحتهدون بل من غيرهم، ولا عبرة بغير الفقهاء، والمنقول عن المحتهدين ما ذكرنا، وابن المنذر أعرف بنقل مذاهب المحتهدين" (رد المختار: ٤١٣/٦).

وهذه هي وجهة نظره عن الروافض ، كما نقل في غير موضع من كتابه "رد المختار" نقاً عن أهل السنة والجماعة ، وخلاصة ذلك أن الشيعة الذين لا يعتقدون بألوهية علي لا يحكم عليهم بالكفر (راجع: رد المختار: ٤١٣/٦، ٢٩٣/٣).

وقال الحصكفي :

"واعلم أنه لا يفتى بكفر مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن، أو كان في كفره خلاف ، ولو كان ذلك روایة ضعيفة"

(الدر المختار مع رد المختار: ٤/٢٢٤).

والشيخ عبد القاهر الإسغراياني ألقى ضوءاً على كون أهل السنة وغيرهم مسلمين أو غير مسلمين ، وموقع تكفيرهم بالتفصيل ، فلندع المجال له، يقول :

"الصحيح عندنا أن أمة الإسلام تجمع المقربين بحدث العالم وتوحيد صانعه وقدمه وصفاته وعلمه وحكمته ونفي التشبيه عنه وبنوة محمد ورسالته إلى الكافة وبتأييد شريعته وبأن كل ما جاء به حق وبأن القرآن منبع أحكام الشريعة وأن الكعبة هي القبلة التي تجحب الصلاة إليها فكل من أقر بذلك كله ولم يشبه ببدعة تؤدي إلى الكفر فهو السنوي الموحد وأن ضم إلى الأقوال بما ذكرناه بدعوة شناع نظر ، فإن كان على بدعة الباطنية أو البيانية أو المغيرة أو الخطابية الذين يعتقدون إلهية الأئمة أو إلهية بعض الأئمة أو كان على مذاهب الحلول أو على بعض مذاهب أهل التناسخ أو على مذهب الميمونية من الخوارج الذين أباحوا نكاح بنات البنات وبنات البنين أو على مذهب اليزيدية من الإباضية في قوله بأن شريعة الإسلام تننسخ في آخر الزمان أو أباح ما نص القرآن على تحريمه أو حرم ما أباحه القرآن نصا لا يحتمل التأويل فليس هو من أمة الإسلام ولا كرامة له وإن كانت بدعته من جنس بدع المعتزلة أو الخوارج أو الرافضة الإمامية أو الزيدية أو من بدع البخارية أو الجهمية أو الضاربة أو المحسنة فهو من الأئمة في بعض الأحكام وهو جواز دفعه في مقابر المسلمين وفي ألا يمنع حظه من الفيء والغنيمة إن غزا مع المسلمين وفي أن لا يمنع من الصلاة في المساجد " (الفرق بين الفرق وبيان فرقة الناجية لعبد القاهر أبو نصر البغدادي ١٢/١ ، ط: دار الآفاق الجديدة – بيروت) .

وقد اشتهر في هذا الصدد حديث على ألسنة الخاصة والعامة واعتبر لدى

بعضهم أساساً للكفر والإسلام ، وذلك أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال:

" افترقت اليهود على إحدى أو شتتين وسبعين فرقة، وتفرق
النصارى على إحدى أو شتتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على
ثلاث وسبعين فرقة " (سنن أبي داود، كتاب السنة، باب شرح
السنة ، برقم: ٤٥٩٦ ، وسنن الترمذى ، كتاب الإيمان ، باب ما
جاء في افتراق الأمة ، برقم: ٢٦٤٠ ، وسنن ابن ماجة ، كتاب
الفتن، باب افتراق الأمم، برقم: ٣٩٩١، ٣٩٩٢، ٣٩٩٣).

وقد ورد في بعض الروايات مزيد توضيح لهذا الحديث بأنه روي عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل
حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من
يصنع ذلك وإن بني إسرائيل تفرق على شتتين وسبعين ملة
وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة
واحدة قالوا ومن هي يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابي " (سنن الترمذى ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في افتراق الأمة،
برقم: ٢٦٤١ ، المستدرك على الصحيحين للحاكم ، كتاب
العلم ، فصل في توقير العالم هذه أخبار صحيحة ... ، برقم:
٤٤٤ ، ٤٤٥ ، وكتاب الفتن والملاحم ، برقم: ٨٤٤٨).

ومثل هذه الرواية جاءت في مدونات متون الأحاديث المختلفة عن غير
واحد من الصحابة، يظهر من مجموعها أن الواحدة من هذه الفرق الثلاث والسبعين
هي الناجية، وأما غيرها – وهم الكثرة الكاثرة من المسلمين – فهم أهل النار.

وقد استنتاج العلامة الخطاطي من هذا الحديث أن أي فرقة من هذه الفرق غير
خارجية عن الإسلام؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم عدهم من أمته، وعلم من هذا

أن من يقول آية أو حديثا لا يخرج عن الملة الإسلامية وإن كان مخطئا في تأويله:
" فيه دلالة على أن هذه الفرق كلها غير خارجين من الدين إذ
النبي صلى الله عليه وسلم جعلهم كلهم من أمته وفيه أن
المتأول لا يخرج من الملة وإن أخطأ في تأويله " (السنن الكبرى
للبهقي ، كتاب الشهادات، باب ما ترد به شهادة أهل
الأهواء: ٢٠٨/١٠ ، برقم: ٢٠٦٩٠ ، ط: مكتبة دار البارز –
مكة المكرمة – ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م)

فاتضح أن كونهم من أهل النار لا يعني خلودهم في النار، وإنما المراد
بأنه لا يحصل لهم الدخول الأولى في الجنة ، وإنما يدخلون الجنة بعد الفراغ مما
قدّر لهم من العقوبة؛ لأن كل فرد من أفراد أمة الإجابة يدخل الجنة في نهاية
المطاف ، ويقوى هذا أن بعض الروايات وردت بآلفاظ تالية:

" تفرق أمتي على بضع وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا فرقة
واحدة وهي الزنادقة " (الموضوعات لابن الجوزي: ٢٦٧/١ ، لا
يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " (المرجع السابق) ،
وقال السيوطي : " لا أصل له " (المصنوع في معرفة الحديث
الموضوع : ٨٠/١ ، اللائي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة
بحلال الدين السيوطي : ٢٧٧/١ ، وفي كشف الخفاء :
١٦٧ ، ٤٤٦: أخرج هذا الحديث ابن نجاشي والديلمي
والحاكم، وهم من كبار المحدثين، وصححه الحاكم).

ومن رواة هذا الحديث ابن عمر وسعد بن وقاص وأبو أمامة وأبو
الدرداء وعبد الله بن عمرو بن العاص ومعاوية وغيرهم - رضي الله عنهم - وقد
حاول بعض أهل العلم التوفيق بين الروايتين، فقالوا:

" ... ولعل وجه التوفيق أن المراد بأهل الجنة في الرواية الثانية
ولو م Alla " (كشف الخفاء: ١٦٧ ، ٤٤٦).

ويعني ذلك أن المراد بأهل الجنة في الرواية الأولى من يدخلونها ابتداءً ، وفي الثانية من يدخلونها ولو مآلًا وانتهاءً.

وتبيّن من هذا وذاك أن هذا الحديث الذي يشير إلى أن فرقة واحدة تدخل الجنة، وأثنتا وسبعون فرقة يدخلون النار، وتعود الخطباء ذكره بأشداقهم، ويجعلونه أساساً للتفرقة والانقسام، يدعون إلى التأمل المتأني والتفكير الجاد، فإنه يدعون إلى الوحدة لا إلى الفرق، إلى الحب لا إلى البغض، إلى الاحتياط والتأنّد والتوسط في التكفير لا إلى الاستعجال والارتجالية والعشوائية، يا ليت الخطباء والعلماء والمشايخ أدركوا هذه الحقيقة، يا ليت قومي يعلمون.

وإن تعجب فعجبٌ خلافُ أهل السنة والجماعة الذين يمثلون – فيما أرى – تسعين في المائة من المسلمين على مستوى العالم في قضيّاً فقهية وأمور فكريّة لا طائل تحتها ولا نفع وراءها، حتى يبدأون تكفير بعضهم بعضاً ، فيُكفر المقلدون الغلاة إخوانهم السلفيين، ويُكفر السلفيون الغلاة إخوانهم المقلدين، حتى تجري المناقشات في قضيّة اقتداء المسلم خلف إمام مخالف لمذهبه، مع أن الخلاف في الفروع ما كان بدعاً من الأمر، وإنما كان منذ عهد الصحابة، ولكنهم كانوا يصلون خلف كل مسلم من دون أدنى تراث أو تلعثم، حتى كان بعض المعزلة يؤمّون الناس في العهد العباسي، وأهل السنة يأتمون بهم.

ورحم الله العلامة ابن حزم الظاهري إذ قال:

"فاعلم - عافانا الله وإياك - أن البحث عن مثل هذا أحدهه الخوارج، ... وما امتنع قط أحد من الصحابة - رضي الله عنهم - ولا من خيار التابعين من الصلاة خلف كل إمام صلي بهم" (رسالة في الإمامة، ص: ١٢٣).

وأوضح العلامة ابن تيمية أن الإمام أحمد كان يؤكد على أنه ينبغي للرجل أن يعمل بخلاف مذهبة أحياناً لغرس المحبة المتبادلة بين المسلمين ، يقول :

"ولهذا نص الإمام أحمد على أنه يجهر بالبسملة عند المعارض

الراجح ، فقال : يجهر بها إذا كان بالمدينة ، قال القاضي : لأن أهلها إذ ذاك كان يجهرون فيجهر بها للتأليف ليعلّمهم أنه يقرأ بها " (رسالة الألفة، ص: ٤٨) .

ويقول الإمام في موضع آخر :

" وقاعدتنا في هذا الباب أصح القواعد أن جميع صفات العبادات من الأقوال والأفعال إذا كانت مأثورة أثراً يصح التمسك به، لم يكره شيء من ذلك بل يشرع ذلك كله، كما قلنا في أنواع صلاة الحوف وفي نوعي الأذان الترجيع وتركه، ونوعي الإقامة شفعها وإفرادها، وكما قلنا في أنواع التشهادات وأنواع الاستفتاحات، وأنواع الاستعاذهات وأنواع القراءات وأنواع تكبيرات العيد الزوائد وأنواع صلاة الجنائز وسجود السهو والقنوت قبل الركوع وبعده" (مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٤٢/٢٤).

لا بد من القضاء على اختلاف العلماء والطوائف المذهبية المختلفة، وبه تنشأ فكرة إيجابية وهي أنهم جميعاً متمسكون بالسنة والشريعة، ولم يتجاوزوا حدودها، ولم ينكروا أصولها، وأن يدخل "أدب الاختلاف" كمادة لازمة في الجامعات الإسلامية.

садتي وأجيائي :

لعلكم تعرفون المبني التاريخي "بوابة الهند" الذي يقع في مومباي، ولو تبني بوابة دخول الإسلام في الهند، ويحدد بالضبط أن الإسلام من أي طريق دخل هذه البلاد، فلا مندوحة عن بنائه على شاطئ نهر "نريده" في كجرات؛ لأن النسيم عند ما هبّ من الحجاز المقدس، ووصل راكباً عواتق البحر أول ما وصل إلى هذه الأرض العطرة، وعطروها بشذاها، وهذه هي البقعة الطيبة التي نزل بها الصحابي الجليل حكم بن أبي العاص في العهد الفاروقى، ودُوّت قفارها وجبلها بكتافات الوحدانية والكبرياء لله وحده.

يرى العلماء أن هذه الأرض تشرفت علاوة على سيدنا حكم بن أبي العاص بزيارة عدد من نفوس زكية سعدت برؤيه طلعة النبي صلى الله عليه وسلم وسماع كلامه المعجز، وقد ثبت بما ذكر في التاريخ بدقة أن أبا بكر ربيع بن صبيح السعدي البصري قد حلّ بهذه الأرض، ويرى صاحب كشف الظنون وغيره من عباقرة العلم أنه هو أول المصنفين للعهد الإسلامي.

ومن حسن حظ هذه الخطة الأرضية أن سلاطينها وحكامها وإن كانوا عجمًا ولكنهم كانوا رحماء في حق الرعية، وكانوا من محبي العلم وأهله، مولعين بنشر الدين وتوسيع مفاهيمه وفي مقدمتهم السلطان مظفر شاه الحليم الكجرياتي، وبالتالي اتخذها كثيرون من كبار المحدثين والفقهاء والأولياء والصوفية من العالم الإسلامي ومن مناطق مختلفة للهند مقرا دائمًا، ومركزا لخدمة أهدافهم، وأنشأوا مدارس ومعاهد في أنحائها لنشر ثقافة الإسلام، هنا بدأ الشيخ نور الدين أحمد الشيرازي تلميذ مير سيد شريف، والعلامة وجيه الدين (م: ٩٢٧هـ) الذي لقبه سلاطين كجرات بملك المحدثين، والشيخ جمال الدين الحضرمي (م: ٩٣٠هـ)، - وهو من أسعد تلاميذ المحدث المشهور العالمة شمس الدين السخاوي - دروسهم واتف الناس حولهم، واستفادوا منهم وبقوا هنأ يرونون شجرة العلم إلى أن دفونا في تربتها، هنا بحد المحدث والفقير المشهور الشيخ عبد المعطي العالمة زين الدين زكريا الأنصاري بأكثير المكي تلميذ شهاب الدين أحمد العباسى (م: ٩٩٢هـ)، الذين كان كل عالم منهم نابغة عهده وفريد نوعه، وهنا نبغ الشيخ محمد بن عبد الله الفاكهي الحنبلي (م: ٩٩٢هـ) والسيدشيخ بن عبد الله عيد روس (م: ٩٩١هـ) والشيخ سعيد الشافعي الجبشي (م: ٩٩٠هـ) من تلاميذ العالمة ابن حجر المكي، وهنا تجلت عبقريه الشيخ علي المتقي صاحب "كتنز العمال"، والسيد الشيخ عبد الأول الحسيني شارح صحيح البخاري، والشيخ عبد الله المتقي والشيخ رحمة الله السندي وأمثالهم، فكانوا من المحدثين المرموقين الأفذاذ الذين انتهت إليهم رئاسة العلم في هذه الأرض.

إن أرض كجرات لم تحظ بوجود علماء الحديث ومهرة الأدب والشعر وأئمة المقولات فحسب، وإنما كانت عامة بكتاب الفقهاء والمؤلفين في الفقه الإسلامي، الذين شرفوا هذه الأرض بنفائس علمهم ودرر أفكارهم، فإلى هذه الأرض يتسمى شيخ بن عمر شارح "المهادية"، والقاضي عماد الدين، وقاضي القضاة محمد أكرم قاضي "نهر والا"، وقاضي القضاة جمال الدين، والقاضي إسماعيل الأصفهاني، والمفتى ركن الدين الناغوري مؤلف "الفتاوى الحمادية" والقاضي جعفر الغجري ممؤلف "خزانة الروايات"، وكان لهذين الكتابين أهمية كبيرة في استيعاب جزئيات الفقه الحنفي، ولكن الأسف أنهما في دفائين المخطوطات حتى الآن لم يقدر لهما النور، ولأهل العلم والتحقيق أن تكتحل أعينهم بهما.

ومن يجدر ذكرهم من أمجاد هذه الأرض الشيخ راجح بن داود (م: ٨٩٤هـ) من تلاميذ العالمة السخاوي، وقد ذكر ترجمته أستاذته في كتابه المشهور "الضوء اللماع"، وينقل عن الشيخ عبد الملك (م: ٩٨٠هـ) أنه قد حفظ صحيح البخاري عن ظهر الغيب، ومن ذا الذي لا يعرف العالمة محمد طاهر الفتني الذي لا يزال يستفيد العلماء من مؤلفاته القيمة من "تذكرة الموضوعات"، و"جمع بحار الأنوار" و"المغني في أسماء الرجال" وما إلى ذلك.

ولم تزل أرض كجرات هذه محطة آمال المشايخ والعارفين بالله والصوفية والزهد مع المحدثين والفقهاء، وقد أضاء المشايخ والريانيون من كافة سلاسل وطرق التصوف بأنوار معرفتهم هذه البقعة المباركة، وأنشأوا مراكز التربية الروحانية والزوايا بالقلوب الدفقة، وأخص بالذكر منهم الشيخ علاء الدين المهاجمي، فإن التقدم بدون ذكره غمط لحقه، فقد لقبه الشيخ عبد الحي الحسني صاحب "نرفة الخواطر" بابن العربي الثاني، وكتابه "تفسير الرحمن وتيسير المنان" مشهور على النهج الصوفي، وقد طبع، والذي ألف حول مقاصد الشريعة وأسرار الأحكام كتاباً باسم "إنعام الملك العلام" قبل "حجۃ الله البالغة" للشاه ولی الله الدھلوی: وحاز قصب السبق في ذلك، وإلى هذه الأرض ينتسب العالمة وجیه الدین العلوی أستاذ الأئمة،

الذي ذاع صيت دروسه من أحمدآباد إلى لاهور، والذي هو من أكثر التصنيف والتأليف من علماء الهند.

والخلاصة أن القائمة طويلة، وأنا حائر فيمن أذكره من أدعوه، والواقع أن كجرات ضمت في أحشائها كنزا ثميناً من العلماء والمشايخ، وأنفت بين جوانحها نفوساً كانت بركة الوجود، ومغخرة الإسلام، وكان لها فضل كبير في نشر العلوم الدينية في حين من الدهر، وكانت مكانتها في الهند مثل مكانة بغداد ودمشق والقاهرة في العالم الإسلامي.

والذى زاد أرض كجرات رونقاً وبهاءً، وبلغ إشعاعاتها إلى كل حدب وصوب ورود قافلة علمية من فطاحل علماء جامعة دار العلوم بدبيوند وكبار أساتذتها من العالمة السيد أنور شاه الكشميري، والعالمة شير أحمد العثماني، والشيخ محمد يوسف البنوري، والشيخ بدر عالم الميركي وغيرهم من العلماء المحققين الراسخين الذين حلو ببروعها وجعلوا "دابهيل" منبع فيضهم وبركتهم.

وبحمد الله وفضله لم تزل هذه الولاية محافظة على خصائصها، فإن لها شأنها مرموقاً في كثرة مدارس ومعاهد إسلامية ورقها الصوري والمعنوي، وطموح الأهداف والمرامي مع عملاقة البناء وشموخ المباني.
سادي الأفضل!

إن شمس سلطة المسلمين غرت عن هذه البقعة قبل زمن مدييد، والذين كانوا بالأمس أصحاب العرش والإكليل يساقون اليوم إلى المشنقة، ويبتلون بصنوف من العذاب والمحنة، وقد استتوا بسنة الحياة الملكية في الحن والبلايا بالصمود في وجه الطغيان، ولكن على الرغم من كل هذا وذاك لا تزال حدائق علمها مجلبة لبغضاء العدو الحسود واللددود، ولا تجد منطقة من مناطق شبه القارة الهندية أشد استقامته على الشعائر الإسلامية وأكثر التزاماً بالدين منها، ولاشك أن لولاية كجرات منة عظيمة في الدعم الاقتصادي الذي تتمتع به المؤسسات الدينية والخيرية على مستوى الهند، لا تدانيها منطقة أخرى في ذلك، ولم تنزل قوافل مسلمي كجرات في مكان

من الشرق أو الغرب إلا بالاحتفاظ التام على ثغور فكرية ومميزات دينية، والتمسك بأهداب الدين، والنود عن حوزة الشريعة الإسلامية بكل ثبات واستقامة.

وقد امتنجت بتربة هذه الأرض آهات المحدثين والفقهاء، وعبادات المشايخ والصوفية، التي كانت ليلاتهم وأسحارهم مليئة بها، وتوجد آثارها في كل ناحية من نواحيها حتى اليوم، ولا تزال كل ناحية من نواحيها متضوعة بهذا المسك، ولاشك أن استقامة أهل كجرات على دينهم وشريعتهم وثقافتهم جانب مشرق من حياتهم، وأنموذج رائع لمسلمي الهند جمعاً.

إننا نقدم عن جميع مسلمي البلاد تحية الحبة والإخاء إلى أهل كجرات، الذين خاضوا أنمار البيران ومشوا على حسك السعدان، وواجهوا عواصف هوجاء من الفساد والطغيان، ومرروا بكل ذلك بصير وأناة وجد واجتهاد، ولم تنزلن أقدامهم ولا ارتحفت قلوبهم، وتدعوا لكم هذه القافلة العلمية الوافدة من مناطق بعيدة أن يكون النصر الإلهي لا يزال حليفكم، وتنفلق تبشير صبح الأمل من أفق هذه الليلة المؤلمة الداجية، يسفر هذا الصبح وقريباً يسفر ويولى الظلام هارباً.

سادي الأفضل !

ستناقش في هذه الندوة الثالثة والعشرين ثلاثة موضوعات هامة، أما أولها فهو موضوع الاستصناع، ومن أهمية هذا الموضوع أنه مبني على العرف، وقد استثنى من بعض أحكام العقود العامة، فإن بيع المعدوم غير جائز، ولكن بيع المعدوم يتم في الاستصناع كالسلم، ولا يصح في عامة البيوع أن يؤجل العوضان، ولكن يسوغ ذلك في الاستصناع، ويستخدم اليوم الاستصناع كوسيلة مهمة للتمويل في المؤسسات المالية الإسلامية، ويرجى أنه سوف يسمح بالاستثمار على أسس إسلامية في الهند، ومن فوائد المناقشة في هذا الموضوع الآن أن صورة المسألة ستكون واضحة أمام أعين العلماء.

كما نناقش مسائل ذات أهمية كبيرة في المجتمع الهندي المعاصر المتغير عن الوصية، والهبة، والميراث، وهي ب أمس حاجة إلى أن ينظر فيها من جديد في ضوء

مقاصد الشريعة، وقواعد الفقه، وأصوله، واجتهادات الفقهاء، وبما أن العالم بأسره قد تحول اليوم إلى قرية، فليس لنا أن نكون معزز عن القضايا الدولية، ومن دأب الجمع أنه لم يزل يناقش مثل هذه القضايا، وهذه الندوة أيضاً تناقش مسألة من مسائل هذا النوع، وهي مسألة المواطنة والتجنس، فقد كثرت التنقلات بين دول ودول في هذه الأيام لأسباب مختلفة، فمن هذه الناحية تكتسب هذه المسألة أهمية قصوى، وسوف نتحدث في غير ذلك من المسائل الاجتماعية من الناحية الفقهية.

سادتي!

نتقدم إلى المخلصين الحسينين بجزيل الشكر والثناء على قيامهم بتنظيم هذه الندوة وقبوّلهم استفاضة هذه الكوكبة من العلماء، تقبل الله منهم حسن الرعاية وكرم الوفادة، تقبل الله منهم مساعدتهم، وجعل هذا الاجتماع خير سبب للتوصّل إلى قرارات وتوصيات لا تجحّد عن الصواب والسداد قيد شير، وأرشدنا إلى سواء السبيل، آمين.

اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا، وارزقنا اجتنابه.

وصلى الله على النبي الكريم محمد وعلى آلـه وصحبه أجمعين.

● ● ●